

طغيان الهامش في رواية "الحركي" لمحمد بن جبار-مقاربة ثقافية

The Dominance of the marginalized in Mohamed Ben Djebbar's Novel
"The Harkis" - A Cultural Approach

1 د. فاطمة الزهرة فتّاك *

جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف (الجزائر)

f.fettak@univ-chlef.dz

تاريخ الارسال 2025-12-28 تاريخ القبول 2026-03-01 تاريخ النشر 2026-03-26

ملخص:

تعدّ رواية الحركي للروائي الجزائري محمد بن جبار من الروايات الجزائرية المعاصرة التي قدّمت منظورا جديدا للثورة الجزائرية هذا المنظور هو خاص بفئة الحركي، التي تعتبر نفسها مهمّشة من قبل السلطة والشعب الجزائري، بحكم خيانتها للثورة المجيدة وطنعها في مصداقيتها وجدواها، وذلك قبل وبعد نجاح هذه الثورة المظفرة.

وقد تناولت هذه الورقة البحثية رواية الحركي من منظور ثقافي؛ بهدف استنطاق المسكوت عنه المتخفي خلف صورة الحركي المعروضة في الرواية، والبحث عن طبيعة هذا المسكوت عنه، وعن جذوره في الثقافة الجزائرية، مع محاولة بيان مآلات هذه القناعات المشكّلة لهذا المسكوت عنه، وتأثيرها على قيم المتلقي، وعلى بنية المجتمع الجزائري.

الكلمات المفتاحية: الحركي، محمد بن جبار، الهامش، النقد الثقافي، المضمّر.

Abstract:

The novel "The Harkis" by the Algerian novelist Mohamed Ben Djebbar is a contemporary Algerian work that presents a new perspective on the Algerian Revolution. However, this perspective is specific to the Harkis, who consider themselves marginalized by the authorities and the Algerian people due to their perceived betrayal of the revolution and victory.

This research paper examines the novel "The Harkis" from a cultural Approach, aiming to explore the unspoken aspects underlying the focalisation of the Harkis in the novel. It seeks to study the nature of these unspoken aspects and their roots in Algerian culture, while attempting to clarify the consequences of these convictions that shape this unspoken reality, and their impact on the reader's values and the structure of Algerian society.

Keywords: Harkis, Mohamed Ben Djebbar, the marginalized, cultural criticism, implicit.

1. مقدمة:

لم تكن رواية الحركي لمحمد بن جبار طفرة في عنوانها فحسب، وإنما أيضا في محتواها وشكلها وحتى راويها إذ نطقت رواية الحركي على لسان الحركي ذاته، هذا الأخير الذي هو واحد من بين عشرات الآلاف الذين خدموا

العدو الفرنسي، حكى الحركي سيرته الذاتية إبّان خدمته الاستعمار الفرنسي، وفي ثنايا هذه الحكاية سعى الراوي إلى تقديم صور جديدة غير مألوفة عن أطراف المعادلة الثورية المتمثلة في؛ الثوار الأحرار، والاستعمار الفرنسي وفئة الحركي التي ينتمي إليها الراوي، مع تقديمه مبررات رسمه هذه الصور، هذه المبررات تُظهر فئة الحركي كفئة تملك الحق في اختيار طريق الخيانة، كخيار من الخيارات التي يجب أن تحترم.

وبذلك تثير هذه الرواية مجموعة من التساؤلات تتمثل في: هل صورة الحركي في الرواية هي الصورة الحقيقية الفعلية لهذه الفئة كما هي في الواقع وفي المخيال الشعبي الجزائري؟ وهل فئة الحركي هي حقاً فئة مهمشة؟ وهل تهميشها -إن كان موجوداً فعلياً- هو ظلم لها أم أنّه تحييد لمبادئها ولمرجعياتها التي تأذى منها الوطن؟ هذه الأسئلة وغيرها حاولنا الإجابة عنها من خلال أدوات النقد الثقافي، الذي يعد الهامش والمهمل من المواضيع المحورية التي شغلته منذ ظهوره، حتى قيل عنه إنه بمثابة ثورة للمهمشين والعاديين¹.

وهو ما ييسر لنا تحقيق مجموعة من الأهداف أهمها:

- 1- بيان مدى زيف الصور المقدمة في هذه الرواية.
- 2- دحض المبررات المقدمة حول حرية اختيار الخيانة كوجهة نظر.
- 3- اكتشاف مرجعية هذه الصور من خلال البحث عن الأنساق المضمرة في الرواية.

2. الحركي وفعل التهميش:

1.2 . مفهوم الهامش:

يمثل النقد الثقافي أحد أهم تيارات ما بعد الحداثة، التي توصف بأنها شكل من أشكال الثقافة المعاصرة أو أسلوب في الفكر يدي ارتياباً بالأفكار والتصورات الكلاسيكية ومختلف معايير الفكر الحداثي²، وقد تجسّد هذا الارتياب وبلغ أوجّه في الهجوم على الفن المؤسّساتي، والذوق النقدي التقليدي، وفي إزالة الحدود بين الفن والحياة اليومية، وإذابة التميز التراتبي بين الثقافة الشعبية والثقافة الرفيعة³.

ولعل هدف تحطيم الحدود بين هذه المتقابلات هو ما دفع النقد الثقافي، منذ ظهوره في ستينات القرن العشرين إلى "نقد أنماط الهيمنة"⁴ التي ارتبطت بالمؤسّسات الثقافية، الساعية إلى إقناع الناس بقبول الوضع القائم كما هو وإيهامهم بأن موقفهم هو الموقف الطبيعي، وفي نفس الوقت رد الاعتبار للهامش والمهمل.

تردّد مصطلح الهامش والتهميش وما شابهه من مصطلحات في العصر الحديث في مختلف المجالات والتخصصات المعرفية، وبالرغم من اختلاف استخداماته إلا أن له معانٍ محددة تتكرر في كل استخدام. ومن المعاني التي ألحقت بمصطلح الهامش ما نجده عند المختص في علم النفس الاجتماعي والسياسي أليين تودمان Allen E. Todman الذي يرى أن التهميش هو عبارة عن جملة الإجراءات والخطوات المنظّمة التي على أساسها تُوضع الموانع أمام الأفراد والجماعات، حتى لا يتحصلوا على الحقوق، والفرص، والموارد، وخدمات السكن، الصحة، التوظيف، التعليم، المشاركة السياسية، وغيرها من الحقوق المتاحة للمجموعات الأخرى، و التي

هي أساس التكامل الاجتماعي⁵، ومن ثمّ فالمهمّشون هم من لا يتمتعون بكل حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، وهو ما تختصره مي مجيب عبد المنعم بقولها أنّ التهميش هو: "عملية الاستبعاد من المشاركة الفعّالة في المجتمع"⁶، وهذا الاستبعاد يلحق بعض الفئات لأسباب دينية أو عرقية أو إيديولوجية، أو اقتصادية واجتماعية... كما أنّه أمر عام في كل المجتمعات، حيث يقول جواد بشارة في هذا الشأن "ففي كل زمان ومكان هناك أفراد يعيشون على هامش المجتمع، في مواجهة مع الرأي العام، والثقافة الاجتماعية، فقد وضعوا بعيداً، وتمت إزاحتهم من الدائرة الاجتماعية، لأن حضورهم ينظر له على أنّه تهديد للجسم الاجتماعي"⁷.

وهنا نتوقف عند قضية التهديد، إذ إن تهديد هذه الفئات للمجتمع قد يكون مجرد وهم، لكنه يشيع ويترسّخ في المجتمع فيصبح كأنه حقيقة، مثل تهديد المشردين والمسؤولين للبنية الاجتماعية في نظر الطبقة البرجوازية بالرغم من أن هذه الفئة هي في الأغلب ضحية الأوضاع الاقتصادية والسياسية الجائرة. كما يمكن أن يكون التهديد حقيقياً وليس وهماً، بمعنى أنّ هذه الفئات المهمّشة بالفعل تهدّد مصالح المجتمع وأمنه، ومن ثمّ فحق له أن يبعدها ويهمّشها ليقف أذاها.

ومن أمثلة هذه الفئات نجد فئة المجرمين واللصوص كما نجد أصحاب الأيديولوجيات المنحرفة والأفكار المتطرفة، إضافة إلى فئة الخونة الذين يبيعون مصالح وطنهم مقابل تحقيق أهداف شخصية ضيقة، هذه الفئة وجدت في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي، ومن بين الألقاب التي أطلقت عليها لقب الحركي. وهنا نتساءل هل بالفعل هدّدت فئة الحركي مصالح المجتمع الجزائري؟ وإن كان الأمر كذلك فما حجم هذا التهديد الذي استحققت لأجله هذا التهميش والاستبعاد طويل الأمد، وتلك الصورة القائمة التي رسمت لها في الثقافة الجزائرية؟

2.2 حركي الجزائر:

الحركي هو لفظ شعبي جزائري خالص، استخدم مباشرة بعد اندلاع الثورة التحريرية في الفاتح من نوفمبر 1954 وقد اشتق هذا الاسم من كلمة حركة نسبة إلى حركة انتصار الحريات الديمقراطية بزعامة مصالي الحاج ذلك الحزب السياسي الذي عارض الثورة المسلحة- بل حاربها، مما دفع الجبهة التحريرية في مؤتمر الصومام (20 أوت 1955) إلى الحكم بالإعدام على كل منتسب للحركة بتهمة الخيانة والتآمر مع قوات الأمن الفرنسية للقضاء على مشروع الجبهة⁸، بحيث أصبح كل منتم لها يطلق عليه لقب الحركي أي المنتسب لحركة مصالي الحاج ثم عمّم فيما بعد ليصبح لقباً لكل من خان الثورة بأي طريقة كانت؛ سواء كان عملاً استخباراتياً أم مسلحاً. أما إذا جئنا إلى التعريف الأكاديمي لهذا المصطلح، فمن بين التعريفات التي نجدها من الجانب الجزائري تعريف نور الدين بولحاييس الذي يقول فيه: "الحركي هم جميع الأشخاص من أصل عربي أو من أصل بربري ممن مارسوا سلوكاً غير شرعي أثناء الثورة التحريرية الجزائرية، ممّا سبّب اضطرابهم لمغادرة البلاد أثناء الاستقلال عن طريق اختيار الجنسية الفرنسية"⁹.

أما عبد الكريم بوصفصاف فيعرف الحركي بأنهم "تنظيم عسكري يتكوّن من عناصر جزائرية ربطت بينها وبين الإدارة الاستعمارية مصالح اقتصادية واجتماعية وثقافية، كانت لهم أسبقية في خدمة العلم الفرنسي على امتداد الوجود الاستعماري في الجزائر"¹⁰، كما قال عبد المالك مرتاض عن الحركي بأنه هو كل شخص ألحق بصفوف العدو، وأصبح يساعده على معرفة تحركات ومخابئ المجاهدين والمناضلين وتتبعهم، وهم يختلفون في أعمارهم، فقد نجد فيهم الكهل، والشباب المتمكن، والفتى اليافع، وكانوا يخرجون مع الجيش الاستعماري في غاراته التي كان يشنها باستمرار على القرى والأرياف وحتى البوادي¹¹.

أما من الجانب الفرنسي، فالحركي هم تلك الفئة من الأهالي المسلمين الذين تم تجنيدهم للعمل كمليشيات إضافية في الجيش الفرنسي¹²، أو هي وحدات إضافية مشكّلة في كل فيلق، وهي تعتمد على وحدات قاعدية (كتائب، سرايا، سرايا مدفعية) تتكفل بتكملة الأمن الإقليمي والمساهمة في العمليات المحلية على مستوى القطاعات¹³.

بينما يعرف François-Xavier Hautreux الحركي بأنهم جنود إضافيون مجندون ضمن الجيش الفرنسي في الريف الجزائري في الفترة الممتدة بين 1955-1962، وهؤلاء الرجال هم ورثة الجنود الأهالي منذ 1832، الذين شاركوا جنبا إلى جنب مع وحدات المتروبوليتان في غزواتهم، ثم على حفظ النظام الاستعماري أثناء الثورة¹⁴.

ومن خلال التعريفات السابقة يمكن القول؛ إن الحركي هم الخونة الذين انضموا إلى الجيش الفرنسي للحفاظ على مصالح وأمن الفرنسيين المستعمرين للأرض الجزائرية، وأن وجودهم كان منذ لحظة دخول الفرنسيين إلى الجزائر لكن تسمية الحركي أطلقت على هذه الفئة بعد قيام ثورة التحرير الوطني، كما أنهم ينتمون لمختلف الفئات العمرية ومن العرب والبربر على حد سواء.

لكن السؤال المطروح في هذا الموضوع، هل كان انضمامهم طوعا أم قسرا؟ وما الأسباب التي التي دفعت بهم إلى خيانة وطنهم وأهل بلدهم؟

3.2 أسباب الخيانة:

ذكرت المراجع التاريخية أسبابا عديدة لخيانة الحركي لوطنهم، تمثلت أهمها في¹⁵:

- أسباب اقتصادية، كالفقر والبطالة، الناتجة عن سياسة التجويع التي تبنتها فرنسا منذ دخولها الجزائر.
- أسباب النفسية، مثل الشعور المسبق بالهزيمة والإقرار بتفوق الخصم، والحكم بأن التفوق هو الذي سيصنع النصر.

- أسباب اجتماعية، كالخوف من الانتهاكات، ومصادرة الممتلكات، والتقرب من السلطة.

- أسباب سياسية، كضعف التكوين السياسي، ونقص في التوعية، والتنافس بين القبائل أو الأسر بنية الانتقام، إضافة إلى التحزب ضد أطراف أخرى ذات ميولات وطنية.

وبالنسبة للسبب الأخير؛ يرى محمد حربي أن الحركة لم يكونوا عملاء ايديولوجيين بل هم مرتزقة فقط سخرهم الاستعمار كأدوات، من أجل توريطهم في شرح المجتمع الجزائري، وتحميلهم أخطاء جيش التحرير. كما يرى قريقور ماتياس أنّ دوافع هؤلاء من الانضمام إلى صفوف الحركة والقومية؛ هي حاجتهم إلى العيش ورغبتهم في محاربة جيش التحرير الوطني، ومن أجل معارضة أخ لهم في صفوف جيش التحرير، واتقاء للفاقة ومن أجل خدمة فرنسا¹⁶.

ومما يمكن قوله في هذا المقام؛ أن تلك الظروف التي تولدت عنها دوافع الحركة لخيانة وطنهم، وإيذاء بني جلدتهم، هي نفسها الظروف التي صنعت رجالا أشداء افنكوا الجزائر من فم فرنسا، فهل بقي للحركة مبررات أخرى للخيانة؟

نعم؛ بقي لهم مبررات، هي التي صنعتها رواية الحركة لابن جبار على لسان راويها أحمد بن شارف الحركة فماذا تقول الرواية؟

3. الحركة في الرواية محمد بن جبار:

1.3 - بين يدي الرواية:

رواية الحركة هي رواية سيرة لصاحبها محمد بن جبار¹⁷، صدرت طبعها الأولى سنة 2016¹⁸. وهي تسرد حياة بطل الرواية أحمد بن شارف على لسان البطل نفسه، إذ يتولى بطل الرواية سرد أحداث مرحلة ما قبل الاستقلال الممتدة من جانفي 1960 إلى ماي 1962، وقد قسّمت هذه المرحلة إلى اثني عشر فصلا يمثل كل فصل حدثا معيناً ضمن هذه الفترة، والتي تدور بالأساس حول حياة البطل في ثكنة لاصاص (SAS)¹⁹، التي كان يعمل بها بعد التحاقه بالجيش الفرنسي، وحول النقيب مونتروي الذي وظّف ابن شارف كخادم وسائق شخصي له، ضمن فرقة المخازنية²⁰.

وقد سبق هذه الفصول مقدمة تأثيثية، أخبرنا فيها البطل عن اسمه ونسبه، وعن السبب الذي جعله يلتحق بفرقة المخازنية، المتمثل في الانتقام من عمه الذي أخذ أرض عائلته المكونة من أم وأخت، وذلك بعد وفاة والده كما ذكر البطل سبب كتابة مذكراته بعد هذا العمر الطويل الذي قضاه في منفاه بفرنسا، حيث كان السبب هو طلب المرأة التي كانت ترعاه في الديوان الوطني لقدماء المحاربين، أن يكتب مذكراته كخطوة من خطوات برنامج العلاج من مرض الزهايمر، وذلك لتخفيف قلقه، وتفريغ حمولة تاريخية عانى منها طويلا.

وبعد عرض أحداث وآراء كثيرة في حوالي 180 صفحة، تنتهي الرواية بتكريمه يوم 25 سبتمبر 2016 في فرنسا بوسام الشرف من الرئيس الفرنسي، كمحارب وفيّ لفرنسا. ويختتم محمد بن جبار روايته بتاريخ 10 ماي 2016.

3-2- الغلاف يتكلم:

يلخص الغلاف الحكاية، هذا ما يمكن قوله بعد إتمام قراءة الرواية، كل ما في الرواية خلاصته في الغلاف وغايته في الغلاف.

تتمثل الصفحة الأمامية من غلاف الرواية في مساحة بيضاء كتب عليها عنوان الرواية **الحركي** بالبنط العريض واللون الأسود، وفوقه بخط أصغر وبنفس اللون اسم المؤلف وهو محمد بن جبار، وتحت العنوان مباشرة تقبع علامة أيقونية هي صورة صغيرة لرجل أسود، ملامحه غير واضحة، إلا أنه يبدو رجلاً متقدماً في السن، خاصة وهو يحمل عصا في يده اليمنى، كما أنّ وقفته تشي بثقة عالية في النفس.

ومما يلفت النظر في هذه الصورة؛ هو ظل الرجل الذي يمثل هو أيضاً علامة أيقونية، إلا أنّ هذه العلامة يختلف فيها الدال والمدلول اختلافاً غريباً، حيث إنّ الظل هو بألوان العلم الفرنسي، وهو مخالف للمألوف الذي يكون فيه الظل بالأسود أو الرمادي، مهما كان شكل الجسم أو نوع الإضاءة، والأشدّ غرابة من ذلك هو أنّ الظل يؤدي التحية العسكرية بخلاف هيئة الشخص الذي يمثله الظل.

هذه العلامات الموجودة في الصفحة الأولى من الغلاف؛ توحى مجتمعة بأن ذكريات الرجل التي تمثل ظلّه هي ذكريات مرتبطة بفرنسا، أما تحيته العسكرية فهي تؤكد بأنه كان موالياً للاستعمار الفرنسي، ومجتداً ضمن جيشه المحتل، كما أنها تتضمن احتمالاً آخر هو أنّ هذا الشيخ العجوز يفتخر بوظيفته السابقة، هذا الاحتمال الأخير يتأكد مباشرة بعد قلب الكتاب للاطلاع على صفحة الغلاف الخلفية، حيث تتضمن الصفحة نصاً هو مقتطفاً من أول فقرة في الصفحة الثانية من الرواية، هذه النص يلخص لنا الرواية ومقصديّة الرواية بشكل دقيق ومركّز، حيث إنّ القارئ لو اكتفى بهذه الفقرة وحدها من الرواية لفهم مغزاها، ولأغنته عن الرواية ككل. فماذا يحمل هذا النص؟

3-3- النص الصادم:

بعد النص المقتطف من الرواية، والمثبت في الغلاف الخلفي لها؛ نصّاً مكتنزاً بالجمال الثقافية، بحيث تشير كل جملة منه إلى النسق المضمّر الذي تنبع منه، كما أنّ كل جملة فيه تحدث صدمة قوية للقارئ-خاصة القارئ الجزائري، لما تحمله من خيبة أفق الانتظار، ومن معارضة للنسق الثقافي السائد، حول ظاهرة خيانة الوطن، هذه الصدمة هي أشد من صدمة العنوان، الذي يحمل اسم فئة لم يعتد القارئ الجزائري رؤيتها على أغلفة الروايات، أو تركيز الاهتمام عليها، بالحديث عنها بشكل مستقل.

يبدأ النص بجملة: **تعمّدت أن أتخلص من "جزائريتي" ليس انتقاماً أو كرهاً، أريد ألا يكون هناك حنين** هذه الجملة تعبّر عن موقف الحركي من انتمائه إلى بلده الأصلي الجزائر، حيث يتنصل متعمداً من هويته الحقيقية ليوحي من اللحظة الأولى أنه اختار طريق الخيانة عن قصد، ولم يكن مجبراً على ذلك. ويضيف إلى ذلك قوله: **لا تحرّجني هذه التسمية إطلاقاً لأن ما أراه الآن في بلد العرب من تدمير ذاتي وتحطيم مقدرات شعوبهم وبيع بلدانهم وثرواتهم وأحيانا الاستعانة بجيوش الغرب يدعو للسخرية.** وفي هذا القول تستوقفنا جملتين؛ الجملة

الأولى تتعلق بعدم تخرج أحمد بن الشارف من لقب الحركي مطلقاً، والجملة الثانية تتعلق بسبب ذلك؛ والمتمثل فيما يراه من أفعال العرب التي تمثل الخيانة الحقيقية، وبالرغم من أن السارد لم يحدد الفترة التي وقعت فيها هذه الأفعال، إلا أنه يمكن أن نربطها بالتاريخ المدون في ختام الرواية والتي وقع به الروائي نهاية روايته؛ وهو 10 ماي 2016، لتنشر الرواية بعد هذا التاريخ مباشرة في سبتمبر 2016 عن دار منشورات القرن 21، هذه الفترة وما يسبقها، هي الفترة التي بلغ فيها فساد النظام السياسي والاقتصادي أوجّه في الجزائر، وفي غيرها من البلدان العربية، وهو ما انتهى في الجزائر بحراك فيفري 2019. وبذلك فالحركي بن الشارف يجعل الخيانة هي ما قام به هؤلاء العرب من إفساد لبلدانهم.

وهو ما يؤكد فيما تبقى من النص حيث يقول: **الخيانة لا تكون إلا إذا كانت جماعية أما الخيانة الفردية فهي موقف.** وبهذا الحكم يروج الحركي ابن شارف للمفهوم الجديد للخيانة، وهو أنها موقف شخصي، ووجهة نظر وحرية شخصية؛ كل فرد له الحق في اختيار الخيانة، وهذا الحق وهذه الحرية يجب أن يحترما. ولا تحمل الخيانة المعنى السلبي أو مفهوم التعدي والإجرام إلا إذا كانت جماعية. ويبدو أن بن شارف لم ينتبه إلى أن الخيانة الجماعية هي أيضا تسمى مصالح سياسية واستراتيجية، أو حقاً قومياً لدى الجماعة التي تتبنى الخيانة أو التي تستفيد منها. وفي حقيقة الأمر فإن مفهوم الخيانة عند ابن شارف ليس جديداً بقدر ما هو هامشي، ولكن أصحاب هذا المفهوم من المعسكر الغربي الاستعماري يسعون للترويج له، ولجعله مركزياً في الأنساق الثقافية لإنسان العالم الثالث، قصد إعادة تشكيل ثقافة قابلية الاستعمار من جديد. وهو ما يثبتته متن الرواية بمختلف تفاصيله.

3-4- موقف الحركي من فرنسا:

تبدأ الرواية منذ صفحتها الأولى بتوضيح موقف أحمد بن شارف الحركي من فرنسا ومن الجزائر، حيث يقول: **لكي رحلت اخترت مصري في حين كثير من أقراني لم يحصل لهم شرف تحديد موقفهم، اخترت فرنسا أحببتها، تشرّبت روحها، اعتنقت أفكارها تكلمت لغتها وتجنّست، استفدت من الرعاية والامتيازات الاجتماعية والمهنية والصحية²¹**، في هذه الفقرة يوضح الحركي سببين لخيانته؛ السبب الأول هو حبه لفرنسا وتشبعه بثقافتها، وتكلمه بلسانها، أما السبب الثاني فهي الامتيازات المادية التي حصل عليها، وبذلك فموقف ابن شارف نابع من مزيج من العواطف والمادة، أو بمعنى آخر مزيج من المصالح الشخصية المادية والمعنوية، ولا وجود فيها للإنسانية أو الأخلاق.

ولكن حتى الامتيازات المادية والمعنوية لم تكن موجودة فعلياً -إلا في حالات نادرة حين يثبت الحركي قدرة وولاء منقطع النظير في القضاء على أبناء جلدته، فالتاريخ يؤكد أن الحركي كانوا مجتدين من الدرجة الثانية، وأقل مرتبة من المخازنية، وأقل تسليحاً منهم، حيث سلّحوا ببنادق الصيد التي كانت تعطى لهم نهاراً عند وجود سبب لذلك، وتؤخذ منهم ليلاً، أما روايتهم فهي روايت مدّلة، فقد كان يتقاضى بعض الرقباء الحركي 11 فرنكا يومياً -بعد أن أعترف لهم ببعض الرتب سنة 1959- وقد عوملوا باحتقار كعمال أجراء ليس لهم ضمان اجتماعي ولا

إعانات عائلية، في حين لهم الحق في عطلة سنوية مدفوعة الأجر (ليوم ونصف من كل شهر حضور)، ولهم الحق كذلك في العلاج مجاناً في حالة العطب والجرح وفي حالة الإعاقة الدائمة أو المزمنة، كما لهم الحق في منحة في إطار حادث أثناء العمل، وإذا مات في معركة تتقاضى أرملته بعد مدة طويلة منحة تحددها الإدارة المدنية. لينتهي بهم الأمر إلى تخلي فرنسا عنهم بعد الاستقلال، ولم تسمح إلا لـ 5% منهم بالرحيل نهائياً إلى فرنسا، بينما بقي الآخرون يواجهون مصيرهم²².

وإذا عدنا للرواية من جديد قلنا أنّ بطل الرواية كانت له جرأة على اتخاذ هذا الموقف والتصريح بالانتماء الوجداني والثقافي، والذهاب إلى الصف الآخر دون تردد، وهو ما لم يفعله غيره من الحركي، الذين بقوا معلقين بين انتمائهم لوطنهم الأصلي وولائهم لفرنسا، وبذلك فهم يتشبثون بالنسق المسيطر الذي انتموا إليه يوماً، وإن تمردوا عليه. بينما ابن شارف أراد صناعة نسق جديد بمفاهيم جديدة وقيم جديدة، يحلّ محل النسق المسيطر، نسق يجعلك تحون وطنك دون أن تشعر بالذنب، أو تضع نفسك في خانة الهامش.

هذا الموقف الشاذ عزّزته الرواية من خلال محاولتها تصوير ابن شارف كإنسان راق يحب القراءة، منظم ومتفان في عمله، ووفّي لقائده الذي يكتن له الاحترام والتقدير والحب، هذا القائد الذي يظهر بمظهر الحكيم الواعي المتحضر الذي يحترم النساء. وبالمقابل نجد صورة الجزائري المجاهد سطحية ومشوهة، لا ترقى أن تكون حتى في مستوى صورة الحركي.

3-5-صورة المجاهد في الرواية:

لم يكتف أحمد بن شارف من خلاله سرديته من الرفع من شأن الهامش وردّه ندّاً للمركز، بل عمل على تشويه المركز وإضفاء سمة الهامشية عليه، وذلك من خلال تشويه صورة المجاهد الذي يمثّل هذا المركز، وقد انطلق هذا التشويه منذ الصفحة الثانية التي بدأ فيها أحمد بن شارف بسرد قصة عمه الذي أخذ أرض أخيه المتوفى وطرده مع أمه واخته، وقد ذكر ابن شارف أن جرأة عمه على الظلم كانت مستمدة من ابنه المجاهد الذي كان يتباهى به، وهو السبب الذي منع أهل قريته من الدفاع عن هذه العائلة خوفاً وتملقاً لأب المجاهد، حيث يقول في ذلك: لا أحد يجرؤ على عمي ولا أحد يخالفه الرأي في مسألة الاستيلاء على قسمة أبي، الكل يتخوف منه حتى شيخ الجامع اعتبره شأناً داخلياً، يستوجب السكوت وصرف النظر²³. هذه الواقعة اتخذها ابن شارف سبباً لقتل عمه، وذريعة للانتقام من المجتمع الذي حمى عمه، والحقده على المجاهدين الذي اعتبر وجودهم دعماً معنوياً لعمه، وإن لم يكونوا على علم بما فعله هذا العم.

أما الصورة السلبية الثانية للمجاهد والتي عزّزت الصورة الثانية، هي التي مثلتها قصة ولد عايشة الذي مر بظروف مشابهة لظروف ابن شارف، إلا أنه بعد أن قتل المعتدي على أرضه وهو سي الوهاب وهو أحد الحركي هرب إلى الجبال والتحق بالمجاهدين.

وفي قصة هذا المجاهد يكمن أمران؛ الأمر الأول يتعلق بالدافع، حيث ركّز ابن شارف على دافع الانتقام لصعود الجبل، الذي هو دافع هامشي مقارنة بدوافع دينية وسياسية واقتصادية جعلت الجزائريين يحملون السلاح ضد العدو.

والأمر الثاني هو محاولة ابن شارف وضع قصة المجاهد ولد عايشة في مقابل قصته، ليجعل من اختيار كل واحد منهما لطريقه هي مجرد وجهة نظر، يجب أن تحترم. بل إنّه يحاول أن يعمّم هذا الدافع على المجاهدين جميعاً شيئاً فشيئاً، بداية من أبناء عمه حيث يقول: أولاد عمي في حقيقة الأمر يثأرون من كل العباد من لحظة صعودهم وانضمامهم إلى الإرهاب والخارجين عن القانون²⁴.

وبذلك فولد عايشة التحق بالمجاهدين بسبب الثأر، وأبناء عمه جعلوا صعودهم للجبل فرصة للثأر، كما أنّ الذين التحقوا بهم هم إرهاب، وهذا المصطلح الأخير يكرّره في عدة مواضع من الرواية مع مصطلح الفلاقة الذي يطلقه الفرنسيون على المجاهدين، حيث يقول: تأكّد خبر لجوء ولد عايشة إلى جماعة الفلاقة المربطة بجبال يازرو تلك المنطقة الجبلية الوعرة التي يسهل فيها تحضير العمليات الإرهابية ضد الفرنسيين²⁵.

وبإطلاق لقب الإرهاب على المجاهدين والعمليات الإرهابية على العمليات الجهادية، جعل ابن شارف صورة المجاهد معادلة لصورة الإرهابي السلبية، بل شديدة السلبية في الثقافة الجزائرية-خصوصاً بعد العشرية السوداء، وبذلك نسف القضية الجزائرية من جذورها ورسم صورة مشوهة للجزائر وأهلها، وقد استثنى ابن شارف نفسه ومن يشبّهه من خونة من صفة الإرهاب. باعتبارهم أهل الفكر المتحرّر مثل المستدمرين الفرنسيين! وعند هذه النقطة يمكن أن نتساءل عن رأي الروائي في موضوع الحركي ورواية الحركي، فماذا قال محمد بن جبّار عنهما؟

3-6-الروائي يتحدث:

تفرض القراءة الثقافية للنصوص الأدبية، البحث عن امتدادات تلك الأنساق المضمرّة في النصوص خارج النص المقروء، ولعل أول موضع نبحت فيه عن هذا الامتداد هو كاتب النص الأدبي. تحدّث محمد بن جبّار في لقاءاته الصحفية المختلفة عن روايته وعن موضوعها، حيث قال عن موضوع الرواية: مواضيع الثورة من المواضيع التي تتبناها السلطة منذ الاستقلال، أصبحت السردية المقدسة التي لا يدخلها دخیل ولا يروّيها أجنبي، في كل سردية هناك طرفا صراع، الشهداء والمجاهدون وفي المقابل الحركي والأشرار والشرّيين، وهكذا تشكّلت العقيدة²⁶، وبذلك فالخطاب السلطوي في نظر بن جبّار يضع الحركي في خانة الخائن الذي لا مكان له في المركز، وهو ما ينعكس أيضاً في الأدب؛ الذي يراه محمد بن جبّار يتناول موضوع الخيانة من وجهة نظر سلطوية ساذجة وحماسية²⁷.

تصريحات محمد بن جبّار حول تناول الأدب لهذا الموضوع يؤكّد عدم تبنيه لهذا النسق المركزي الذي يسيطر على معالجة موضوع الخيانة، ومحاولته تبني رأي آخر يعبر عن نسق مضمر يبحث له عن فرصة للسيطرة، وهو ما

يعبّر عنه الأديب بقوله: المقاربة الوحيدة في الأدب لموضوع الحركي هي المصالحة التاريخية، لأن هناك ما هو أهم من التشبت بالتاريخ فهناك مستقبل الوطن ومستقبل الأمة²⁸، وبذلك فحسب بن جبار فإن وضع الحركي في خانة الخونة؛ أي في منطقة الهامش هو تشبت بالتاريخ؛ وهو يعيق التقدّم بإعاقته للمصالحة.

ولم يتوقف الأمر عند الحركي، حيث يضيف ابن جبار القول: كما يجب لفت الاهتمام إلى جزائريين من طوائف وملل وديانات أخرى ولدوا في هذا البلد²⁹، وبهذه الإشارة المقتضبة يظهر ابن جبار أنّ المطالبة برد الاعتبار للحركي ما هو إلا الجزء الظاهر من جبل الجليد، وأن المطالبة بحقوق الحركي التي لم يدافعوا عنها عندما ضحى الشهداء بأنفسهم لأجلها، ما هي إلا البداية للحديث عن حقوق أخرى لأصحاب آخرين.

أما عن روايته فيقول بن جبار: أردت في هذه الرواية استنطاق المحظور من ذاكرة الجزائريين، بالتوغل في المسكوت عنه بجرأة غير مسبوقة، وباستفزاز الذاكرة الجماعية ضد النسيان الذي طال الحركي، الذي يعيد النظر في ثنائية الشرف والخيانة.³⁰ ومن ثم فالهدف من الرواية ليس العفو عن الحركي، وإنّما هو إعادة النظر في ثنائية الشرف والخيانة، هذه الثنائية التي لم يخرج الجزائريون فيها عن مألوف البشر في أي عصر من العصور وفي أي دولة من الدول، ولا حتى في قانون فرنسا الذي يعاقب الخائن بحكم الإعدام أو المؤبد ويسمّيها الخيانة العظمى. فلماذا علينا نحن أن نتقبل الخيانة ونعدّها حرية شخصية.

4. خاتمة:

وفي الختام يمكن القول إن هذه الرواية تميزت بما يلي:

✓ أنّها نص صادم استطاع فيها الروائي محمد بن جبار أن يحطّم أفق الانتظار لدى القارئ الجزائري، على نحو غير مسبوق.

✓ أنّها عملت بدهاء على بناء قاعدة لنسق ثقافي جديد، وذلك بإعلاء شأن الهامش والدفع به إلى الواجهة، على حساب المركز الذي ارجع إلى الخلف، ليصبح الهامش مركزاً، والمركز هامشاً، وأصبحت الخيانة مجرد وجهة نظر.

✓ أنّ مفهوم الهامش تغيّر في هذه الرواية، فلم يعد يمثّل الفئة المضطهدة فقط، التي تحتاج إلى التفاتة المركز والسلطة، بل أصبح يمثّل الفئة الظالمة أيضاً، ومن ثمّ تحوّل الهامش في الرواية إلى وسيلة لجلب التعاطف للحركي.

✓ استطاعت الرواية أن تساوي بين الجلاّد والضحية، وأن تظهر الفرنسي بمظهر الإنسان المتحضّر والجزائري بمظهر المتخلف.

وفي الأخير نقول إذا كان التصالح مع التاريخ لا يتمّ إلّا بالعفو عن الظالم، فإنّ على الظالم أن يشعر بذنبه ويعترف بجرمه، ويتبرأ من مبادئه التي استقى منها خطيئته، قبل أن يطلب العفو عنه.

5-الهوامش:

- ¹ ينظر، آرتر أيزابجر، النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر: وفاء إبراهيم، ورمضان بسطاوسي، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة، 2003، ص 16
- ² ينظر تيري ايغلون، ما بعد الحداثة وما بعد الحداثيّة، ضمن كتاب ما بعد الحداثة، 1-تحديدات، تر: محمد سيلا وعبد السلام بنعيد العالي، ط 1، دار توبقال للنشر، المغرب، 2007، ص 81
- ³ ينظر محمد العبيدي، المركزي والمهمش في الشعر الأندلسي في عصري الطوائف والمرابطين، ط 1، دار غيداء للنشر، عمان، 2018، ص 40
- ⁴ عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط 3، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2005، ص 20
- ⁵ ينظر عادل إبراهيم شالوكا، حول مفهوم التهميش وأشكاله (2012/07/15)، <https://www.alrakoba.net> (2024/09/23)
- ⁶ ينظر نفسه
- ⁷ ينظر جواد بشارة، التهميش الاجتماعي أبعاد الظاهرة ودلالاتها (2005/11/11)، الحوار المتمدن، العدد 1375، <https://www.ahewar.org> (2024/09/20)
- ⁸ مسعود عثمان، الثورة الجزائرية-أمام الرهان الصعب، دار الهدى، الجزائر، 2012، ص 188
- ⁹ Nordine Boulhaïs, Les Harkis chaouiïas, des Aurès au bassin de la Sambre (1954-1996) In: Revue du Nord, tome 78, (n°316), Juillet- septembre 1996, pp. 581-604, p583.
- ¹⁰ عبد الكريم بوصفصاف، حرب الجزائر ومراكز الجيش الفرنسي القمع والتعذيب بولاية سطيف 1954-1962، دار البعث، الجزائر، 1998، ص 38
- ¹¹ ينظر عبد المالك مرتاض، المعجم الموسوعي لمصطلحات الثورة (1954-1962)، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر، 2010، ص 74
- ¹² Benjamin Stora, Les mots de la guerre d'Algérie, Ed : PUM, 2005, p19
- نقلا عن صباح البار ولبياء بوقريوة، تجنيد الحركي والقومية ضمن الجيش الفرنسي أثناء الثورة الجزائرية، مجلة أفاق علمية، المجلد 13، ع 5، الجزائر، 2001، ص 17
- ¹³ ينظر عبد الحميد براهيم، في أصل الأزمة الجزائرية (1958-1999)، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001، ص 25
- ¹⁴ Hauteux François-Xavier, La Guerre d'Algerie des harkis, les chemins de la Mémoire (N°238), Septembre 2013, p3
- ¹⁵ ينظر مسعود عثمان، الثورة الجزائرية أمام الرهان الصعب، مرجع سابق، ص 180
- ¹⁶ ينظر قريقور ماتياس، الفرق الإدارية المتخصصة في الجزائر - بين المثالية والواقع (1955-1962)، تر: محمد جعفري، ط 1، منشورات السائح الجزائري، 2013، 177
- ¹⁷ محمد بن جبار كاتب جزائري من مواليد 1965 في مدينة غليزان غرب الجزائر، حاصل على ماستر في القانون الجنائي وشهادة الكفاءة المهنية للمحاماة، ويعمل تقنياً سامياً في مجال الفلاحة. صدرت له ثلاث روايات؛ هي: "أربعمئة متر فوق مستوى الوعي" (2015)، و"الحركي" (2016)، و"هايدغر في المشفى" (2018)، ينظر وقفة مع محمد بن جبار (2018/11/9)، موقع العربي الجديد <https://www.alaraby.co.uk> (2024/09/24)
- ¹⁸ عن منشورات القرن 21 في طبعها الأولى، وعن دار ميم باللغة العربية واللغة الفرنسية سنة 2022
- ¹⁹ SAS : Les sections administratives spécialisées : هي مجموعة من المصالح الإدارية المدنية والعسكرية في آن واحد، تم إنشاؤها بعد اختيار النظام الإداري القديم المتمثل في المكاتب العربية، يقودها مجموعة من الضباط الفرنسيين يعرفون باسم ضباط الشؤون الأهلية المتكونين في المعاهد، وهم متخصصون في الدعاية وعلم النفس والشؤون الجزائرية، ويتقنون التكلم باللغة العربية واللهجات المحلية، وفي نفس الوقت هي تنظيمات شبه عسكرية تسهر على تنفيذ أوامر وتعليمات الإدارة الاستعمارية ينظر ضباط الشؤون الأهلية وتصدي الثورة لهم، منشورات المتحف الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الأبيار، الجزائر، ص 34

²⁰ هي فرقة عسكرية تأسست خلال شهر أبريل سنة 1955، بإيعاز من الفرنسي جاك سوستيل، تتولى حماية المنشآت التي أقامتها لاصاص sas وتم توظيف أفرادها من السكان المحليين، ينظر عبد الهادي حسين، لاصاص بين تأطير السكان المحليين وإفشال الثورة التحريرية، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع 12، 2017، ص 149

²¹ محمد بن جبار، رواية الحركي، ط1، دار ميم، الجزائر، 2022، ص 07

²² ينظر صباح البار، لمياء بوقريوة، تجنيد فرق الحركي والقومية ضمن الجيش الفرنسي أثناء الثورة الجزائرية (1954-1962)، مجلة آفاق علمية، مج 13، ع 05، 2021، ص

²⁴

²³ ينظر نفسه، ص 09

²⁴ ينظر نفسه، ص 43

²⁵ نفسه، ص 45

²⁶ سعيد خطيبي، الحركي.. وحياتهم الثانية في الأدب (2022/04/13)، <https://www.alquds.co.uk>، (2024/10/10)

²⁷ ينظر نفسه

²⁸ نفسه

²⁹ نفسه

³⁰ نفسه

6. قائمة المراجع:

الكتب:

1. أيزابجر آرتر، النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة، تر: وفاء إبراهيم، ورمضان بسطاوسي، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة، 2003
2. ايغلتنون تري، ما بعد الحداثة وما بعد الحداثة، ضمن كتاب ما بعد الحداثة، 1-تحديدات، تر: محمد سيلا وعبد السلام بنعبد العالي، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب، 2007
3. براهمي عبد الحميد، في أصل الأزمة الجزائرية (1958-1999)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001
4. بن جبار محمد، رواية الحركي، ط1، دار ميم، الجزائر، 2022
5. بو صفصاف عبد الكريم، حرب الجزائر ومراكز الجيش الفرنسي القمع والتعذيب بولاية سطيف 1954-1962، دار البعث، الجزائر 1998
6. العبيدي محمد، المركزي والمهمش في الشعر الأندلسي في عصري الطوائف والمرابطين، ط1، دار غيداء للنشر، عمان، 2018
7. عثمان مسعود، الثورة الجزائرية أمام الرهان الصعب، دار الهدى للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012
8. الغدامي عبد الله، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2005
9. قريقر ماتياس، الفرق الإدارية المتخصصة في الجزائر - بين المثالية والواقع (1955-1962)، تر: محمد جعفري، ط1، منشورات السائحي الجزائري، 2013
10. مرتاض عبد المالك، المعجم الموسوعي لمصطلحات الثورة (1954-1962)، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر، 2010

المقالات:

1. Hauteux François-Xavier, La Guerre d'Algerie des harkis, les chemins de la Mémoire (N°238), Septembre 2013
2. Nordine Boulhaïs, Les Harkis chaouiäs, des Aurès au bassin de la Sambre (1954-1996) In: Revue du Nord, tome 78, (n°316), Juillet- septembre 1996
- 3- صباح البار وملياء بوقريوة، تجنيد الحركى والقومية ضمن الجيش الفرنسي أثناء الثورة الجزائرية، مجلة أفاق علمية، مج 13، ع 5، الجزائر، 2001،

المواقع الالكترونية:

1. جواد بشارة، التهميش الاجتماعي أبعاد الظاهرة ودلالاتها (2005/11/11)، الحوار المتمدن، العدد 1375،
(2024/09/20) /https://www.ahewar.org
2. سعيد خطيبي، الحركى .. وحياتهم الثانية في الأدب (2022/04/13)،
(2024/10/10) /https://www.alquds.co.uk
3. عادل إبراهيم شالوكا، حول مفهوم التهميش وأشكاله (2012/07/15)،
(2024/09/23) /https://www.alrakoba.net